

تقاعد غير مريح

❖ أميمة عز الدين ❖

خرج من السجن. تمطى قليلاً. تلفت حوله، باسطقاً كفه على وجهه اتقاء أشعة الشمس الحارقة. تمخبط وبصق على الأرض. بادله حارس السجن بصفة أشد، كادت أن تبلغ وجهه. انحنى ظهره وتقوس. الكراهية تعلق كل شيء: الأرض والدواب والشجر؛ حتى نظرات المارة، يُطل منها كرة واحتقار. ربما عرفوا حكايته القديمة التي لا تزال عالقة. لن يتبرأ منها أو يتوارى خجلاً خلف حجاب. لا أحد يستطيع الهرب من قدره. حينما أصدرت محكمة أمن الدولة العليا حكماً بسجنه عشرين عاماً لتورطه في التجسس لصالح دولة معادية، أحسن ألماً غريباً يفتال صدره. أخذوه مقيداً بالسلاسل ككلب أجرب، حتى كاد أن ينكفئ على وجهه في سجن أبو زعبل. وحين ضمته جدران الزنزانة رقم ٢١٢ هاجمه ثلاثة أشخاص بشراسة حين عرفوا تهمة، فضربوه حتى سالت الدماء من أنفه وبقيّة فتحاته.

عشرون عاماً بالتمام والكمال عاشها منبوذاً، يأكل ويشرب ويسير بمفرده، لا يصاحبه غير ظلّه وغير تهمة التي لم يشعر يوماً تجاهها بتأنيب الضمير. أولع منذ أن كان صغيراً بالتنصت إلى الجيران. يقضي أياماً في تتبعهم حتى يعرف سرهم. لم يجنده أحد كي يكون جاسوساً، بل ذهب بنفسه إلى سفارة تلك الدولة وطلب مقابلة سفيرها لأمر مهم، وظل يروح ويجيء شهوراً طويلة حتى سمح له القنصل بمقابلته على مريض.

اختلى بالقنصل، وهمس له قائلاً: «لدي معلومات خطيرة تفيد بلكم». ثم أخرج مفكرة كبيرة تضم كنوزاً من المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية. ارتبك القنصل؛ فهو يخشى أن يكون ذلك فخاً يتسبب في طرده وطرده سفيره، وإغلاق سفارته في القاهرة. قرأ «رجائي» أفكار القنصل وقال مطمئناً: «لا تخش شيئاً، جرتني». وبعد شد وجذب واختبارات قاسية، تم تكليفه جاسوساً، براتب شهري، والتشديد عليه بالأبى بنفق ببذخ حتى لا يلفت الأنظار إليه، والاحتفاظ بمسكنه القديم، والالتزام بمبادئه وعمله في وزارة المالية. لكن، بعد خمس سنوات، قبض عليه وحكم عليه سريعاً لثبوت الأدلة الدامغة؛ حتى إن محاميه لم يحضر جلسة النطق بالحكم.



حين عاد إلى مسكنه بالمنيرة، وجد الناس تلفظ وجوده. فاضطر إلى الرحيل وقلبه معلق بالمكان الذي ولد فيه ومارس أولى نزواته في التجسس على الجيران. واستقر في مكان بعيد، وقال لنفسه: «لقد حان وقت التقاعد». حاول أن يستمتع بالأيام المتبقية من عمره بمراقبة ما يحدث من حوله. شكّل من الشرفة موقعاً استراتيجياً لمراقبة حركة الجيران. وفي الليل، عندما ينشب شجاراً أو يعلو صراخ أو تتسلل همسات، كان يلصق أذنه إلى الجدار. لم يجد ما يشغل وقته غير كتابة تقارير، منه وإليه، أسماها «تقارير سرية عن سلوك الجيران الجدد وحركتهم». وعلى الرغم من عدم اختلاطه بهم، ونفورهم منه، فقد استطاع أن يجمع معلومات لا بأس بها وتعامل مع الأمر بجديّة تامّة. لما شعر بالإنهاك، وخفت بصره، ولم تعد النظارة تساعده على الكتابة، شعر بالرتاء لحاله، وقال في استكثار لا يخلو من المرارة والمهانة: «يا له من تقاعد غير مريح!»

القاهرة